الإمامُ جعفَرُ الصَّادقُ
مَدرَسَةُ العِلمِ والإيمانِ

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

إذا ذُكرَ العِلمُ فَحَيهلا إلى الإمامِ جَعفرِ الصَّادقِ، مَدرسَةِ العِلمِ والإيمانِ. الإمامُ جَعفَرُ الصَّادقُ، مَدرَسَةُ العِلمِ والإيمانِ، أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُعَرَّفَ بِهِ، وقَدْ شَهدتْ لَهُ الأَرضُ والسَّماءُ، والقاصي والدَّاني، والقَريبُ والبَعيدُ، والعَدو والصَّديقُ، والحاضِرُ والغَائِبُ، بِسعَةِ عِلمِهِ، وفَضلِهِ العِلميِّ الكَبيرِ، ليسَ عَلى الأُمَّةِ العَربيَّةِ فَقَط، وإِنَّما عَلى الأُمَّةِ الإِسلاميَّةِ بِأَسرِها، وعَلى الإِنسانيَّةِ بِمَجموعِها، بِأَمسِها ويَومِها، وماضيها وحاضِرِها.

أَجَل، إِنَّ الرَّعيلَ الأَوَّلَ مِنْ عُلماءِ العَربِ والإِسلامِ الَّذِينَ أَضاءَتْ شُموسُ مَعارِفِهِمُ الدُّنيا بِأَسرِها، وفَجَّروا بِعقولِهِمْ يَنابيعَ العِلمِ والحِكمَةِ في سَماءِ الإِنسانيَّةِ كُلِّها، وأَزالوا بِأَبحاثِهِمْ غاشِيَةَ الجهلِ والظَّلامِ الَّذِي خَيَّمَ عَلى الأَبصارِ والعُقولِ ردحاً طَويلاً مِنَ الزَّمَنِ، تَخَّرَجوا جَميعاً مِنَ المَدرسَةِ المُحَمَّديَةِ الَّتِي أَنشَأَها الإِمامُ جَعفَرُ الصَّادقُ بِالمَدينَةِ المُنوَّرةِ، مَدينَةِ جَدِّهِ رَسولِ اللهِ ﷺ في مَطلَعِ القَرنِ الثَّاني الهِجريِّ، ثُمَّ انتَقلَتْ إِلى مدينَةِ الكوفَةِ بِالعِراقِ، فَكانَتْ مَدرَسَتُهُ أَوَّلَ أَكاديميَّةٍ عِلميَّةٍ في تاريخِ العَربِ والإِسلامِ قاطِبَةً.

لَقَدْ أَغدقَ الإمامُ جَعفَرُ الصَّادقُ مِنْ بِحارِ عِلمِهِ المُتَفرِّعِ مِنْ دَوحَةِ العِلمِ النَّبوي العَذبِ والصَّافي، ما أَعادَ لِلبَشريَّةِ النُّورَ والأَملَ الَّذِي افتَقَدَتْهُ بَعدَ وفاةِ جَدِّهِ رَسولِ اللهِ ﷺ، ونَشَرَ في رُبوعِ الحياةِ العِلمَ والطُّهرَ والعَفافَ، في وَقتٍ حاوَلَ فيهِ بَعضُ نشاذِ الأُمَّةِ مِنْ أَصحابِ الأَفكارِ الهَدَّامَةِ، والعقلِ الماديِّ الدَّخيلِ، أَنْ يَرجعوا القَهقَرى بِأَبناءِ الأُمَّةِ إِلى شَطحاتِ الجاهليَّةِ الجَهلاءِ، وإِلى جُنونِها الماديِّ الَّذِي يُقَوضُ الإِيمانَ والفَضيلَةَ، ويَجعَلُ العَقلَ لا يُؤمِنُ إِلَّا بِالحسِّ والمادَّةِ ويُنكرُ وجودَ الرُّوحِ والخالقِ.

وَقَفَ الإِمامُ جَعفَرُ الصَّادق بِثَقافَتِهِ الإِسلاميَّةِ الأَصيلَةِ في وَجهِ هذِهِ الَّتِياراتِ الفِكريَّةِ الهَدَّامَةِ المُتَشَرِّبَةِ بِالفَلسَفَةِ اليونانيَّةِ، وَقفَةَ العالِمِ الحَصيفِ مُدافِعاً عَنْ مبادئ الإِسلامِ مِنْ يَنبوعِها الصَّافي (القُرآنِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ) مُتَسَلِّحاً بِالعِلمِ المُتَدلي مِنْ مشكاةِ النُّبوَةِ، جامِعاً الأُمَّةَ عَلَى كَلمَةٍ سواءٍ، فَأَسَّسَ مَدرَسَتَهُ الجامِعَةَ لِمُفَكريِّ الأُمَّةِ وعُلمائِها ووَزَّعَ عَليهِمُ الاختصاصاتِ العلميَّةَ في شَتَّى فروعِ العِلمِ والثَّقافَةِ النَّظريَّةِ والتَّطبيقيَّةِ، فَأَقبلوا يَنهلونَ مِنْ عِلمِهِ الزَّاخِرِ، ويَغرفونَ مِنْ مَعينِ عَطائِهِ الوافِرِ.

وما مِنْ عالمٍ مِنْ عُلماءِ الأُمَّةِ في عَصرِ الإِمامِ الصَّادقِ إِلَّا وأَصابَهُ نَصيبٌ مِنْ عِلمِهِ ومَعرفَتِهِ سواءٌ كانَ فَقيهاً، أَمْ مُحَدِّثاً، أَمْ مُفَسِّراً، أَمْ مُتَكَلِّماً، أَمْ طَبيباً أَمْ عالِماً في الكيمياءِ.

فَمَنْ هوَ الإِمامُ جَعفَرُ الصَّادقُ؟

❁ ❁ ❁

هوَ أَبو عبدِ اللهِ الإِمامُ جَعفَرُ الصَّادقُ ابنُ الإِمامِ مُحَمَّدِ الباقِرِ ابنِ الإِمامِ عَليِّ زَينِ العابِدينَ ابنِ الإِمامِ الحُسينِ سَيِّدِ شَبابِ أَهلِ الجَنَّةِ ابنِ الإِمامِ عَليِّ بنِ أَبي طالِب. فَهوَ الإِمامُ السَّادسُ في سِلسِلَةِ أَئِمَّةِ أَهلِ البَيتِ، كَما أَنَّهُ حَفيدُ القاسِمِ بنِ مُحَمَّدٍ، فَأُمُّهُ هيَ فَروَةُ، وقيلَ: فاطِمَةُ ابْنَةُ القاسِمِ، وأُمُّها أَسماءُ بِنتُ عبدِ الرَّحمَنِ بنِ أَبي بَكرٍ الصِّديقِ، ولِهذا كانَ يَقولُ الإِمامُ جَعفَرُ عَنْ نَفسِهِ: وَلدني أَبو بَكرٍ الصِّديقُ مَرَّتين.

ولِدَ الإِمامُ جَعفرُ الصَّادقُ في المَدينَةِ المُنوَّرَةِ سَنةَ (80) لِلهجرَةِ، ونَشَأَ وتَرعرَعَ في بيتِ أَبيهِ الإِمامِ مُحَمَّدٍ الباقِرِ المَشهورِ بِعلمِهِ وتَقواهُ ووَرعِهِ وكِفاحِهِ في سَبيلِ تَثبيتِ دَعائمِ الفكرِ الإِسلاميِّ في عَصرٍ زاخرٍ بَنموِّ العِلمِ وانتشارِ المَعرفَةِ والثَّقافاتِ الوافِدَةِ، وانبِهارِ النَّاسِ بِعلمِ الكلامِ، فَكانَ لِلإِمامِ الباقِرِ مَجلسُهُ العِلميُّ كُلَّ يَومٍ في مَسجدِ الرَّسولِ الكَريمِ ﷺ بالمَدينَةِ المُنوَّرةِ، يَتوافَدُ النَّاسُ إِليهِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وصَوبٍ يَسمَعونَ ويَتَعلمونَ عَلى يَديهِ.

وَعَى الإِمامُ جَعفرُ الصَّادقُ إِلى كُلِّ ذَلكَ وهُوَ لَمْ يَزَلْ في سِنينَ عُمرِهِ الأُولى، ولَمْ يَكَدْ يَبلُغُ السَّابَعَةَ مِنْ عُمرِهِ حَتَّى أَتَمَّ حفظَ القُرآنِ الكَريمِ، وأَخذَ عَنْ أَبيهِ قَدراً كَبيراً مِنَ العِلمِ الرَّبانيِّ، ثُمَّ بَدأَ يَقرأُ في كُتبِ العُلومِ المُتَرجَمَةِ مِمَّا قَدْ يَصلُ إِلى يَديهِ، وكانَ لَهُ مَيلٌ خاصٌّ نَحوَ كُتبِ الطِّبِّ والكيمياءِ الَّتي أَشرفَ عَلى تَرجَمَتِها خالدُ بنُ يَزيدَ مِنْ قَبلُ، ثُمَّ وَرثَ الإِمامَةَ عَنْ أَبيهِ الإِمامِ الباقرِ، وأُلقيَ عَلى عاتِقِهِ واجبُ قِيادةِ الأُمَّةِ إِلى مَسارِها الصَّحيحِ في مُجتَمعٍ يَعُجُّ بِالثَّقافاتِ المُتناحِرَةِ الَّتي تَتَسابَقُ في تَرويجِ بَضاعَتِها وكَسبِ العَامَّةِ وتَطعيمِ الثَقافَةِ الإِسلاميَّةِ بِالأَفكارِ الماديَّةِ الفَلسفيَّةِ وبالجَدلِ والكَلامِ، والتَّشكيكِ بِقدرَةِ الخالِقِ

ﷺ، والخَوضِ في الحَديثِ عَنْ وجودِ اللهِ وذاتِهِ العَليَّةِ بِأسلوبٍ لا يَتَّفقُ معَ العَقلِ ومَعَ مَنهجِ الأَنبياءِ والكُتبِ السَّماويَّةِ.

أَضِفْ إِلى ذَلكَ الصِّراعاتِ السِّياسيَّةَ الَّتِي كانَتْ في أَوجِها بينَ الأمويينَ والعَباسيينَ، الَّتِي انتَهتْ بِزوالِ دَولَةِ الأُمويينَ واسْتلامِ العَباسيينَ لِمَقاليدِ الخِلافَةِ الإِسلاميَّةِ، ورغمَ مُحاولاتِ البَعضِ زَجَّ الإِمامِ الصَّادقِ في هذهِ الصِّراعاتِ إِلَّا أَنَّهُ كانَ أَوعَى مِنْ هذهِ المُحاولاتِ والعُروضِ والإِغراءاتِ والوعودِ، فَآثَرَ اعتزالَ السِّياسَةِ لِيَتَفَرَّغَ لِنَشرِ العِلمِ وإِقامَةِ مَدرَسَتِهِ الَّتِي تَشَكَّلتْ نَواتُها الأُولى عَلى يَدِ أَبيهِ الإِمامِ الباقرِ، فَكانَتْ مَدرَسَةُ الإِمامِ جعفَرٍ سابِقَةً لا مَثيلَ لَها في تاريخِ العَربِ والإِسلامِ، ومَركَزاً لِلإِشعاعِ العِلمي والفكري في جَميعِ أَنحاءِ العالَمِ الإِسلاميِّ في وَقتِها. فكُلُّ العُلومِ والمَعارفِ الَّتِي انتَشَرتْ فيما بَعد مَدينَةٌ لِلإِمامِ جَعفَرٍ الصَّادقِ بِقَدرٍ قَليلٍ أَو كَثيرٍ، إِذا ما عَلمنا أَنَّ عَدَدَ العُلماءِ الَّذِينَ ارتادوها وتَخَرَّجوا مِنْها بَلغَ نَحوَ الأَربَعةِ آلافِ عالمٍ في مُختَلفِ فُروعِ العِلمِ والمَعرفَةِ.

❋ ❋ ❋

أَشادَ بِعلمِ الإِمامِ جَعفَرٍ الصَّادقِ الأَولونَ والآخرونَ، الأَقدمونَ والحَديثونَ، واعْتَرفوا بِفَضلِهِ الكَبيرِ وبِدَورِهِ العَظيمِ في ارتقاءِ العُلومِ والمَعارفِ الدِّينيَّةِ والدُّنيَويَّةِ، لَيسَ عَلى العَربِ والمُسلمينَ فَحَسب، وإِنَّما عَلى الفِكرِ الإِنسانيِّ عامَّةً.

فَقَدْ عَدَّ المُستَشرقُ الأَلمانيُّ «دونالدسون» الإِمامَ جَعفَرَ مِنْ عَدادِ العُلماءِ والمُفكرينَ

الَّذِينَ تُدينُ لَهُمُ الإِنسانيَّةُ بِكلِّ ولاءٍ واحترامٍ وتَقديرٍ لأَنَّهُمْ وَهبوا حَياتَهُمْ لِلعلمِ والمَعرفَةِ مِنْ أَجلِ خَيرِ الإِنسانيَّةِ وسَعادتِها، فَقالَ: «إِنَّ الإِمامَ الصَّادقَ مَدرسَةٌ شِبهُ سُقراطيَّة».

ويُؤكدُ الباحثُ أَميرُ عَلي في كِتابِهِ «تاريخ العَربِ والإِسلامِ الحَضاري» ذلك فيقول: «إِنَّ المَدرسَةَ الَّتِي أَسَّسَها الإِمامُ الصَّادقُ لَمْ تُغلَقْ بِوفاتِهِ، بَلْ ظَلَّتْ تَزدَهرُ بِرعايَةِ ابنِهِ الإِمامِ موسَى الكاظِمِ».

أَمَّا المُؤرخُ والناقِدُ الإِمامُ الشَّهرستانيُّ ـ وناهيكَ عَنِ الشَّهرستانيِّ الَّذِي لا يُجامِلُ في رأيهِ أَحداً ـ فَيُعطي رَأيَهُ بِالإِمامِ الصَّادقِ فَيقولُ: وهوَ ذو علمٍ غَزيرٍ في الدِّينِ، وأَدبٍ كاملٍ في الحكمَةِ، وزُهدٍ بالغٍ في الدُّنيا، وورَعٍ تامٍّ عَنِ الشَّهواتِ، وقَدْ أَقامَ بِالمَدينَةِ مُدَّةً يفيدُ الشِّيعَةَ المُنتَمينَ إِليهِ، ويفيضُ عَلى الموالينَ لَهُ أَسرارَ العُلومِ، ثُمَّ دخَلَ العِراق وأَقامَ بِها مُدَّةً. ما تَعرَّضَ لِلإِمامَةِ قَطُّ، ولا نازَعَ أَحداً الخِلافَةَ قَطُّ، فَمَنْ غَرَقَ في بَحرِ المَعرفَةِ لَمْ يَطمَعْ في شَطٍّ، ومَنْ تَعالَى إِلى ذَروَةِ الحَقيقَةِ لَمْ يَخَفْ مِنْ حَطٍّ».

أَمَّا شَيخُ الإِسلامِ المُحَدِّثُ والمُؤرخُ والفَقيهُ ابنُ حِجرٍ الهَيثَميُّ فَيُؤكِّدُ عَلى أَهميَّةِ الدَّورِ العِلميِّ لِلإِمامِ الصَّادقِ فَيقولُ: «نَقلَ النَّاسُ عَنهُ مِنَ العُلومِ ما سارَتْ بِهِ الرُّكبانُ، وانتَشَرَ صِيتُهُ في جَميعِ البُلدانِ».

وهَذا أَحدُ كِبارِ العِلماءِ مِنْ أَعيانِ العَصرِ الَّذِي تَلا عَصرَ الإِمامِ جَعفَرٍ، وأَحدُ الَّذِينَ رَوَوا عَنهُ يَقولُ مُدَلِّلاً عَلى فَضلِه عَلى عُلماءِ المُسلمينَ عَلى مَرِّ العُصورِ والأَجيالِ، وهوَ الحَسنُ بنُ عَليٍّ الوَشَّاءُ:

«أَدرَكتُ في هذا المَسجدِ ـ مَسجدِ الكوفَةِ ـ تُسعمئَةَ شَيخٍ، كُلٌّ يَقولُ: (حَدَّثَني جَعفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ)».

وهَذا الإِمامُ والفَقيهُ المَشهورُ أَبو حَنيفَةَ النُّعمانُ مُؤَسسُ المَذهَبِ الحَنفيِّ يُقِرُّ لِلإِمامِ جَعفَرٍ بِفَضلِهِ وأُستاذِيَّتِهِ عَليهِ، حَيثُ كانَ مِنْ رُوادِ مَدرَسَتِهِ، وصَحبَهُ سَنتين مُتواصلتينِ يَأخذُ عَنهُ العِلمَ والفِقهَ والحَديثَ وأُصولَ اسْتنباطِ الأَحكامِ الفِقهيَّةِ فَيقولُ: «لولا السَّنَتانِ لَهَلَكَ النُّعمانُ».

بَلْ كانَ جَوابُهُ لِمَنْ سَأَلَهُ واسْتَفتاهُ في رَجلٍ وَقفَ مالَهُ لِلإِمامِ، فَمَنْ يَستَحقُّ ذَلكَ المالِ؟ فَيُجيبُ أَبو حَنيفَةَ: «إِنَّ المُستَحِقَّ هُوَ جَعفَرُ الصَّادق لأَنَّهُ الإِمامُ الحقُّ».

وهذا الإِمامُ عبدُ اللهِ مالِكُ بنُ أَنسٍ، فَقيهُ المَدينَةِ، ومُؤسِّسُ المَذهبِ المالِكيِّ، وأَحدُ تَلامِذَةِ الإِمامِ جَعفَرٍ، حَيثُ كانَ يَختَلفُ إِليهِ لِيَأخذَ عَنهُ العِلمَ، ما كانتْ لَديهِ أَيُّ غَضاضَةٍ أَنْ يُصَرِّحَ بِأَعلَميَّتِهِ وعُلوِّ مَنزِلَتِهِ ووَرعَهِ فَيقولُ:

«جَعفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ اختَلَفتُ إِليهِ زَماناً، فَما كُنتُ أَراهُ إِلَّا عَلى إِحدى ثَلاثِ خِصالٍ، إِمَّا مُصلياً أَو صائِماً، وإِمَّا يَقرأُ القُرآنَ، وما رأَتْ عَينٌ ولا سَمِعَتْ أُذنٌ، ولا خَطَرَ عَلى قَلبِ بَشَرٍ أَفضَلُ مِنْ جَعفَرِ بنِ مُحَمَّدٍ الصَّادقِ، فَضلاً وعِلماً وعِبادَةً ووَرعاً».

ويَرَى الإِمامُ والعَلَّامَةُ الأَزهريُّ المُعاصِرُ الشَّيخُ مُحَمَّدُ أَبو زَهرةٍ في كِتابِهِ «الإِمامِ جَعفَرٍ الصَّادقِ» أَنَّ «الإِمامَ جَعفَرَ الصَّادقَ أَعظَمُ عُلماءِ وفُقهاءِ الإِسلامِ عَلى مَرِّ العُصورِ والأَجيالِ».

❁ ❁ ❁

إلى جانبِ عِلمِهِ الجَمِّ كانَ الإمامُ الصَّادقُ عَلى قَدرٍ عَظيمٍ مِنَ الصِّفاتِ الحَسَنَةِ، والأَخلاقِ الحَميدَةِ الَّتِي اجتَمَعتْ في شَخصِهِ بِشَكلٍ يُبهرُ الأَلبابَ، ويُحَيِّرُ الأَفهامَ، ويُمقِتُ الحُكامَ، حَتَّى أَصبَحَ حَديثَ النَّاسِ لا بِعلمِهِ فَقَطْ، وإِنَّما أَيضاً بِأَخلاقِهِ الَّتِي قَلَّما تَجتَمعُ في شَخصٍ مِنْ دونِهِ عايَشَ المَرحَلةَ والظُّروفَ الَّتِي عَصَفَتْ بِعصرِهِ.

أَجل، لَقَدْ لُقِّبَ بِالصَّادقِ لِصدقِ حَديثِهِ قَولاً وعَملاً، ولِصدقِ ثَباتِهِ لِلمَنهَجِ الرَّبانيِّ، وصدقِ ضُلوعِهِ في تَأديَةِ الرِّسالَةِ في نَشرِ عُلومِ الهَدي السَّماويِّ المُتَمَثِّلِ بِتعاليمِ القُرآنِ وهَدي السُّنَّةِ النَّبويَّةِ المُطَهَّرَةِ وما تَوارَثهُ آلُ البَيتِ مِنْ فُيوضاتِ العِلمِ الَّذِي لا يَنضبُ، فَنالَ هَذا اللَّقَبَ عَنْ جَدارَةٍ واسْتحقاقٍ بِتَوفيقِ اللهِ وعَونِهِ ورِعايَتِهِ لَهُ.

قالَ في مَدحِهِ تِلميذُهُ ابنُ الحَجَّاجِ:

يـا سَـيِّـداً أَروي أَحـاديـثَـهُ رِوايَـةَ الـمُـسـتَـبـصـرِ الـحـاذقِ

كَـأَنَّـنـي أَروي حَـديـثَ الـنَّـبـيِّ مُـحَـمَّـدٍ عَـنْ جَـعـفَـرِ الـصَّـادقِ

كَما كانَ مِنْ شِيَمِ الإمامِ الصَّادقِ البَذلُ والإنفاقُ في سَبيلِ اللهِ ومواساةُ الفُقَراءِ والمُحتاجينَ، فَكانَ لا يَردُّ سائِلاً، ويُرسِلُ الصّرَرَ مِنَ الدَّراهمِ والدَّنانيرِ إِلى الفُقراءِ ولا يُعَرِّفُهُمْ بِنَفسِهِ، كَما كانَ شَديدَ العَفوِ عَنِ المُسيءِ، صَبوراً في المَلَمَّاتِ، حليماً في مواطنِ الغَضبِ، جَريئاً في قَولِ الحَقِّ، لا يَخشَى في اللهِ لَومَةَ لائِمٍ، اقتَربَ بِأَخلاقِهِ العَظيمةِ مِنْ دَرَجةِ الأَنبياءِ والصِّديقينَ، وحَسنَ أُولئِكَ رَفيقاً.

وَصَفَهُ الشَّاعرُ المُعاصِرُ عبد اللهِ بنُ المُبارَكِ بِقولِهِ:

أَنـتَ يا جَعفَـرُ فَـوقَ المَدحِ والمَدحُ عَناءُ إِنَّما الأَشرافُ أَرضٌ ولَهُمْ أَنتَ سَـماءُ
جازَ حَدَّ المَدحِ مَنْ قَدْ وَلَدَتْهُ الأَنبياءُ اللهُ أَظْـهـرَ دِيْـنَـهُ وَأَعَـزَّهُ بِـمُـحَـمَّـدِ

ولَقَدْ كانَ الخَليفَةُ أَبو جَعفَرِ المَنصورُ ـ رغمَ تَمَتُّعِهِ بِجاهِ السُّلطةِ والمُلكِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حَسداً مِنَ الإِمامِ الصَّادقِ عَلى المَكانَةِ الَّتِي تَبَوَّأَها في قُلوبِ النَّاسِ بِعلمِهِ وأَخلاقِهِ، وقَدْ حاولَ أَكثَرَ مِنْ مَرَّةٍ اسْتدراجَهُ إِلى مَصيدَةِ التَّزَلُّفِ لِلسُّلطَةِ وإِسقاطِ شَعبيَّتِهِ بينَ النَّاسِ، لَكِنَّ الإِمامَ الصَّادقَ كانَ يَرُدُّهُ رَدّاً مُفحماً يَنطَوي عَلى إِخلاصِ السَّريرَةِ للهِ ﷻ.

جاءَ في كِتابِ «الكَشكولِ» لِبَهاءِ الدِّينِ العامليِّ: «إِنَّ المَنصورَ كَتبَ إِلى الإِمامِ الصَّادقِ يَقولُ لَهُ:

ـ لِمَ لا تَغشانا كما يَغشانا النَّاسُ؟

فَأَجابَهُ الإِمامُ: ليسَ لَنا مِنَ الدُّنيا ما نَخافُكَ عَليهِ، ولا عندَكَ مِنَ الآخرَةِ ما نَرجوكَ بِهِ، ولا أَنتَ في نِعمَةٍ فَنُهَنيكَ بِها، ولا في نقمَةٍ فَنُعَزيكَ بِها.

فَكتَبَ إِليهِ المَنصورُ ثانيَةً: تَصحَبُنا لِتَنصَحَنا.

فَكتَبَ إِليهِ الإِمامُ: مَنْ يَطلبِ الدُّنيا لا يَنصَحْكَ، ومَنْ يَطلبِ الآخرَةَ لا يَصحَبْكَ».

❁ ❁ ❁

تَوَزَّعَ عِلمُ الإِمامِ الصَّادقِ في شَتَّى فُروعِ العِلمِ والمَعرفَةِ، فَقدْ كانَ رائِداً في الفقهِ والحَديثِ وأُصولِ التَّشريعِ والمُناظَرةِ والجَدلِ وعلمِ الكَلامِ والطِّبِّ وعُلومِ الفَلكِ والكيمياءِ، وضَليعاً في مَعرفَةِ أَسرارِ حياةِ الإِنسانِ والحَيوانِ والطَّبيعَةِ والكَونِ.

وفي مَجالِ العُلومِ الكونيَّةِ والطَّبيعيَّةِ لَمْ يَقصدِ الإمامُ تَعلُّمَ حَقائِقِها تَعلُّماً مُباشَراً، وإنَّما كانَ يَستلهمُها اسْتلهاماً في الأُمورِ والأَحوالِ العارضَةِ في مَعرضِ رَدِّهِ عَلى الدَّهريينَ مِمَّنْ تَشَرَّبتْ عُقولُهُمُ الثَقافاتِ والفَلسفاتِ الوافِدَةَ مِنْ خارِجِ مُحيطِ الأُمَّةِ، فَلَمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ يُعلِّمُهُ أَو يَشرحُ لهُ، كما لَمْ يَكنْ عِندَهُ مُختَبراتٌ علميَّةٌ ليَكتَشفَ مِنْ خِلالِها حَقائِقَ العِلم في الكَونِ والطَّبيعَةِ والإنسانِ، وإنَّما حَقيقَةُ العِلمِ والمَعرفَةِ للهِ يُؤتيها لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11] ومِصداقاً لِقولِ اللهِ ﷻ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 282].

كانَ الإمامُ الصَّادقُ يُملي عَلى تَلامذَتِهِ الدُّروسَ الطِّوالَ يُوضِحُ فيها هَيئَةَ العالَمِ، وتَأليفَ أَجزائِهِ، وكيفيَّةَ خَلقِ الإنسانِ وتَكوينِهِ وولادَتِهِ وتَغذيَتِهِ وغَرائِزِهِ وطباعِهِ، وبَيانَ الدِّماغِ، وإنَّهُ مَركَزُ الحَواسِّ، وما فيهِ مِنْ سائِرِ الأَعضاءِ، ثُمَ حَديثَهُ عَنِ الحَيوانِ وأَنواعِهِ، والحكمةَ في خَلقِهِ مَعَ تَفنيدِ أَقوالِ الخُصومِ، كما تَحدَّثَ عَنْ نِظامِ الكَونِ العَجيبِ أو عقلانيَّةِ تَنظيمِ الأَجواءِ، وعلاقَةِ الإنسانِ بِها، رابِطاً كُلَّ ذَلِكَ بَعَقيدَةِ وجودِ اللهِ ووحدانيَّتِهِ.

أَمَّا في مَجالِ عِلمِ الكيمياءِ، فَقَدْ حرصَ الإمامُ الصَّادقُ عَلى تَدريسِ مادَّةِ الكيمياءِ في مَدرسَتِهِ، وكانَ يُملي عَليهِمْ حقائِقَ علمِ الكيمياءِ ونَظرياتِهِ كَإمكانِ تَحويلِ المَعادنِ الخَسيسَةِ إلى ذَهبٍ بِواسطَةِ الإكسيرِ.

يَقولُ محَمَّدُ فياضُ في كِتابِهِ «جابرِ بنِ حَيَّانَ»: إنَّ الإمامَ الصَّادقَ يُعتَبرُ ثاني المُشتَغلينَ في علمِ الكيمياءِ، وإنْ لم يوجدْ مَصادرُ واضِحَةٌ وجَليَّةٌ تُوضِحُ طَبيعَةَ العَملِ الَّذي قامَ بِهِ،

ولَكِنْ عَلى الرَّغمِ مِنْ كُلِّ هذا فَإِنَّ لَهُ تَأثيراً عَظيماً في تَقَدُّمِ هذا العِلمِ المَرموقِ، وذَلكَ بِحكمِ مَنزلَتِهِ المُحتَرمَةِ بينَ النَّاسِ الَّتِي جَعَلتِ الطُّلابَ يُقدمونَ عَلى دراسَةِ علمِ الكيمياءِ بِكُلِّ جَديَّةٍ وإِخلاصٍ، وفي مُقَدمَتِهِمْ «جابرُ بنُ حَيَّانَ».

فَجابرُ بنُ حَيَّانَ الَّذِي يُعتَبَرُ أَبا الكيمياءِ الحَديثَةِ تَتَلمذَ بِهذا العِلمِ عَلى يَدِ الإِمامِ جَعفرِ الصَّادقِ، وكانَ يَفتَتحُ كُلَّ رِسالَةٍ مِنْ رَسائِلِهِ الكيميائِيَّةِ المَوجودَةِ الآنَ في المَكتَبَةِ الوَطنيَّةِ في لُندن بِقولِهِ:

«حَدَّثني سَيِّدي جَعفَرُ بنُ مُحمَّدٍ الصَّادقُ»، وفي كِتابِهِ «الإِمامِ الصَّادقِ مُلهمِ الكيمياءِ» يَقولُ المُستَشرقُ هولميارد: «إِنَّ جابِراً تلميذُ جَعفَرِ الصَّادقِ قَدْ سَعى أَنْ يُحرِّرَ الكيمياءَ بإرشادِ أُستاذِهِ مِنْ أَساطيرِ الأَولينَ الَّتِي عَلقَتْ بِها».

وأَشارَ ابنُ خَلكان إِلى الإِمامِ الصَّادقِ: «وكانَ تلميذُهُ جابرُ بنُ حَيَّانَ قَدْ أَلَّفَ كِتاباً يَشتَملُ عَلى أَوراقٍ تَتَضَمَّنُ رسائِلَ جَعفَرِ الصَّادقِ، وهيَ خَمسُمئَةُ رسالَةٍ».

الأَســـــئِلَةُ والمـــناقَشَـــــة

1 ـ بِوجهِ مَنْ وَقَفَ الإِمامُ جعفرُ بِثقافَتِهِ الإِسلاميَةِ الأَصيلَةِ؟

2 ـ لِماذا قالَ الإِمامُ جَعفرٌ: «ولدني الصِّدِّيقُ مَرَّتين»؟

3 ـ ماذا كانَ لِلإِمامِ مُحَمَّدٍ الباقرِ؟

4 ـ لِماذا آثَرَ الإِمامُ جَعفَرُ اعتزالَ السِّياسَةِ؟

5 ـ ماذا عَدَّ المُستَشرقُ دونالدسون الإِمامَ جَعفراً؟

6 ـ ماذا كانَ الإِمامُ جعفرُ في نَظَرِ الإِمامِ أَبي حَنيفَةَ؟

7 ـ لِماذا لُقِّبَ الإِمامُ جَعفَرُ بِالصَّادقِ؟

8 ـ كيفَ كانَ يَفتَتِحُ جابرُ بنُ حَيَّانَ رسائِلَهُ؟